مطالعاتي حول المدفأة

ساحرة الجبال

للأستاذ صلاح الدين المنجد

نعمتُ الليلة بزورة من آنستي . فجفوتُ حديقة أبيقور[1]، وكنتُ أرتع فيها منذ ثلاث ، وجلست بين يديها ؛ فهي كتاب حي كله إبداع وإغراء . وهي بسامة جذابة ، كأن جسمها الأهيف ظرفُ فتونٍ وعطور ، وكأن ثغرها الحبيب جرة ترفّ ولهب يفور . ولا سبيل إلى الإنكار فهي حلوة بارعة الجمال

دخلت عليّ تقفز وتضحك ، وإذا ضحكت آنستي ، فالدلّ الناعم ، والنَّغَم الجذاب . فرمت قفازها في الأرض ، وفراءها الأشقر على نضد الزهور ، واقتربت من المدفأة جذلى وهي تقول :

— مررتُ ، وأنا آتية إليك ، بعجوز . فدفعتُها فانغمست في الطين !

ثم قهقهت ، فقلت

— أوه ... ! ولم إذاً ؟ ...

— طلبت قرشاً وألحت ، ثم أمسكت بفراني ، فزجرتها ، فتبعتني ، فدفعتُها وأسرعت !

وآنستي لصوب بروقها أن تعبث بالعجائز كلما صادفتهن ، فتغمز بهنّ ، وتسخر منهن ، كأن ثاراً لا يدرك بينها وبينهنّ .

قلت لها وقد جلست أمامي تجعّد شعرها والمقعد يصيح تحتها:

— أراكِ مسرورة ، ألا تخافين ؟

— هه ... ومما أخاف ؟ ...

— أن يصيبك — مثلاً — ما أصاب الأميرة التي طردت الساحرة العجوز لمّا سألتها قطعة من اللحم

— وماذا أصابها ...

— انقلبت عجوزاً ذات شعور بيض ، وأسنان دُرْد ، بعد أن كانت فتاة الصبا جذابة الجمال

فضحكت ضحكة طويلة ... وقالت مستغربة :

— وكيف صارت عجوزاً ؟

— قلبتها ساحرة الجبال ... لأن العجائز مصونات محوطات ، ما آذاهن أحد إلا مسّه السوء ...

— وكيف كان ذلك ... ؟

— لا تسخري ، إصغي إليّ ، أقرأ عليك قصتها :

(١) Jardin d'Epicure. A. France.

لتنفيذه أيد رشيدة وقلوب مخلصة كان أحسن نظام لإقرار العدل وإبتاء النفع العام

فأما القول بأن الديمقراطية أعلنت إفلاسها في سوق الحكم ، فهو قول يأتي على عواهنه في غير تبصر ، لأنه حكم الواقع الوقتي بحالته الخاصة . وما الديمقراطية إلا نظام يجب أن تجري عليه سنة التطور ؟ ولكن روح الديمقراطية حقيقة صالحة يجب أن تبقى وأن تُرعى . والذي أنكرناه قبيل هذه الحرب الراهنة ، مما سميناه إخفاق الديمقراطية ، كان خليطاً من الأسباب والآثار ، منها ما أعقب الحرب الماضية من اضطراب الميزان الاقتصادي ، وتزايد العمال المتعطلين نتيجة تغلب الآلة على الأيدي العاملة ؛ أضف إلى ذلك تفشي الآراء الخيالية في إيجاد نظام يضمن المساواة الاقتصادية بين عامة الناس . وواضح أن ذلك ليس وليد الفساد في النظام الديمقراطي وإنما نشأ من عوامل عمرانية واجتماعية اقتضاها تطور الحياة

فالديمقراطية لم تستطع إزاء هذه المشكلات أن تحل عقدتها بالسرعة الواجبة لها ، لطبيعة البطء فيما تعالج من حلول . ولم يدركها في ذاتها التطور للنشود حتى تعالج بعقلية جديدة تلك المشكلات الإنسانية الناشئة ؛ فانطلقت الطبيعة البشرية ثائرة فائرة ، تبني نظاماً في الحكم يستقيم به الميزان الاقتصادي والاجتماعي ، ويرفرف به الرخاء الممكن على مختلف الشعوب

وإذا جاز لنا أن نقدر ما يجيء به الغد المرتقب رجحنا أن تتمخض هذه الثورة العالمية عن المحافظة على الروح الديمقراطي الصالح ، مع تجديد في نظام الحكم . ومعنى ذلك أن تتطور الديمقراطية تطوراً يواتم البيئة الجديدة والعقلية الجديدة التي تسود بعد هذه الحرب القائمة . وإننا لنلمح من الآن بوادر هذا التطور في الأمم الديمقراطية العريقة

واليقين أن العالم سيشهد في مستقبله السلمي نظاماً مستحدثاً يمكّن للسعادة بقدر المستطاع بين طبقات الشعب ، ولكن هذا النظام ستحل فيه روح الديمقراطية دائماً .

محمود تجور

وتناولت كتاباً من جانبي وقرأت[1] : « ها هي ذي تترك كهفها المظلم ، مأوى الخفافيش ، لتحدر إلى السهل من مهاوى الجبال ، وتزور القصور والسفوح .

« إنها قصيرة ، قصيرة جداً . تلبس رداء من جلد الذئاب ، وتسعى وراء الفلوس والقروش ؛ فهي عطشى للمال على رغم غناها . لقد قالوا إن الغيران التي تملكها في الجبال مترعة بأساور من فضة بيضاء ، وإن بقراتها ذوات القرون الذهبية ترعى في الأهاضيب الخضر ، على شطآن السهول .

« لقد عجب الناس إذ رأوها ، وقالوا : ماذا أنت تفعل في السهول ، ولِمْ تركتْ كهوف الذئاب ... ؟

« إنها عجوز هَرِمة . يا بُعد وجهها الأصفر القبيح ، الرقاق بالدهون ، وأنفها الغليظ النافر ، وعينيها الصغيرتين الوامضتين تحت الأوساخ كالجمرات تحت الرماد . . . يا بعد ذلك من صباحة العذارى وحلاوة الفتيات !

« لقد زعموا أن لها من العمر مئات السنين ، وأنها قادرة على إنزال البَرَد وإيماض البرق . وهي تضلّ القطعان ، وتسلّط الذئاب على الخرفان ؛ وفي إكرامها الخير والبركة ... فمن حَقَرَها فجزاؤه أن ينفر الحصان ، ويحترق الكوخ ، وتُعلّ البقرة ، وتجنّ الزوج ...

« يا ويحها ! لِمَ هبطت من ذرى الجبال ... ؟ لِمَ تركت غيران الذئاب ...؟ ولماذا يصحبها البوم ، وترف حواليها الخفافيش ، وتخرج الحدآت فيملأن الأفق ويغزون الدور والقصور ... ؟

« إنها تمشي مطمئنة ، لا تخاف شيئاً ولا تفزع من مخلوق ، وها هي ذي تصل إلى قصر الأميرة الشامخ ذي العُمُد البيض والجدران الشواهق

« وداست بحذائها الغليظ المصنوع من قشور الأشجار العتاق مماشي الحديقة المطرّزة بالأزهار ، ثم صعدت السلم إلى الطبقات العُلى

« وكانت الأميرة في روشن القصر تتمتع بروعة السماء وأناقة الرياض ، وقد حمل لها خادمان قطعاً من اللحم المشوى ذي الرائحة الطيبة ...

« ومدت العجوز ومدت يدها إلى اللحم ...

وشهقت الأميرة فنادت :

— ويلك أيتها العجوز السارقة ... اذهبي ...

فقالت العجوز :

— أعطيني قطعة لحم ... أعطيني ...

— مجنونة ... سارقة ... أخرجوها ... !

— أعطيني قطعة من اللحم الأشقر المشوى ...

— لا ... لن أعطيك يا عجوز القبح ... لن أعطيك . . فاذهبي ... أطعمها للخفافيش ولا تذوقين طعمها ...

واضطربت العجوز ، ثم أخرجت قضيبها الأخضر المسحور وتمتمت وبربرت ، ثم قالت :

— إذن فلتفترسك الخفافيش !

وكنت أرامق آنستي وأنا أقرأ لها ، فرأيتها قد فغرت فمها الصغير ، وتوردت وجنتاها الريانتان ، وحملقت عينيها الناعستين ، فبدت كالطفل المذعور ، فقالت :

— ثم ماذا أصابها ... أتمم ... أتمم ... ؟ !

« وجمدت الأميرة من الخوف : أرادت أن تضحك فلم تستطع وحاولت البكاء فجمد الدمع ... !

« وأقبلت خفافيش الغاب ، مئاقيرهن حمر ، يبتغين افتراسها وكن يضحكن ضحكات ملأى بالسخرية . تنشر الذعر وتبعث الخوف!

« لقد أسرعت الأميرة إلى مخدعها وأغلقت الباب ، ولكن رنين الضحكات واصطفاق الأجنحة كانا يُسمعان في كل مكان !

« وعاشت الأميرة فلم تر عيناها بعد ذلك اليوم عذوبة الصباح ، ومتوع المساء ، وفرح الحياة ... واختبأت في الظلام وراء السُجف الصّفاق خوفاً من الخفافيش

« وأصبحت بعد أيام ، وإذا شعورها تبيّض ، ووجهها يتجعد ، وإذا هي عجوز

« أين صباحتها الضاحكة ، أين شعرها الناعم ، أين جسمها الطري ... أين ... ؟ »

* * *

ونظرتُ إلى آنستي ، فإذا بها قد اقتربت مني وأمسكت بيدي ، وإذا رأسها الجميل الأشقر يميل برفق ورقة على كتفي ... كأنما خدّرها دفء الهواء ، وأفزعها خفافيش الغاب ، وأحزنها دفئها السائلة ، تخافت أن يدركها الهرم ، ويضحك في رأسها المشيب

نامي آنستي ... نامي ... ولا تفزعي ، فتلك أساطير وأوهام

« دمشق »

صدقي الدجاني

(١) أنظر كتاب الكاتبة السويدية سلمى لاجروف : Selma Lagerlof : La legend de Gosat Berling. traduit et adaptée par André Beflesort.